٣٦- ذم الكبر والترغيب في التواضع

- مقدمة
- عاقبة الكبر
- صور من الكبر:

١- التكبر بالسلطة وبالجمع

٢- التكبر بالمال

٣- التكبر بالأصل وبالحسب والنسب

- الدروس والعظات
- الترغيب فى التواضع
- الخطبة الثانية

يقول النبي ﷺ:

«**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**».

قالوا: يا رسول الله .. إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة؟

فقال ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال .. الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس**».

صحيح مسلم عن ابن مسعود.

- وبطر الحق: أي رد الحق ودفعه والتعالي عليه .. لا ينصاع للحق تكبرا ولا يقبل النصيحة الصادقة تجبرا ..

يقول ابن مسعود: كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله.. قال: عليك نفسك.

وتلا قول المولى عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾. [البَقَرَة: ٢٠٦].

لذلك عندما أرشد النبي ﷺ الرجل بأن يأكل بيمينه وتكبر على الحق وعلى النصيحة ماذا حدث له؟ يروى سلمة بن الأكوع رضي الله عنه (أن رجلا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله ..

فقال له النبي ﷺ: «**كل بيمينك**» قال: لا أستطيع، قالها متكبرا . .

فقال له النبي ﷺ: «**لا استطعت**» ما منعه إلا الكبر. . فما رفعها إلى فيه.

رواه مسلم.

- أما غمط الناس فهو احتقارهم والسخرية منهم.

عاقبة الكبر:

هذا هو الكبر الذي يورد صاحبه المهالك ويرديه في نار جهنم . .

يروى أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف فيقول:

التقى عبد الله بن عمر مع عبد الله بن عمرو بن العاص على المروة فتحدثا . . ثم مضى عبد الله بن عمرو بن العاص وبقى عبد الله بن عمر يبكى . فقال له رجل: ما يبكيك يا بن عمر؟.

قال: هذا - وأشار إلى عبد الله بن عمرو بن العاص - قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبَّه الله لوجهه في النار**». أحمد.

- لذلك فإن من عصى الله في شهوة يغفر الله له إن شاء الله . . ومن عصاه في كبر كبَّه الله على وجهه في النار . .

يقول سفيان بن عيينة:

من كانت معصيته في شهوة فأرجو له التوبة فإن آدم عليه السلام عصى الله مشتهيا اذ أكل من الشجرة فغفر الله له.

ومن كانت معصيته في كبر فاخشوا عليه اللعنة فإن إبليس عصى مستكبرا اذ رفض السجود لما أمره الله فلعن.

صور من الكبر:

تعالوا ننظر بعين الاعتبار والتدبر والتفكر إلى ما سطره القرآن الكريم من كلمات ثلاث قالها أصحابها على سبيل الكبر والغرور فكيف كانت عاقبتهم؟

أنا - لي - عندي . . ثلاث كلمات قيلت عتوا وكبرا . .

(أنا) قالها إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾. [الأعراف: ١٢].

(لي) قالها فرعون: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾. [الزّخرُف: ٥١].

(عندي) قالها قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾. [القَصَص: ٧٨].

فكيف كانت العاقبة وكيف كان المصير؟.

التكبر بالسلطة وبالجمع وبالكثرة:

لا يمكن أن نتحدث عن الكبر والتكبر بالسلطة دون أن نذكر فرعون . .

فرعون الذي وقف يخطب في أهله وقومه وشعبه مستكبرا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾. [القَصَص: ٣٨].

وفرعون الذي وقف يخطب في الناس:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾. [النازعات: ٢٣، ٢٤].

فرعون الذي وقف يخطب في الناس: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾. [الزّخرُف: ٥١].

فرعون الذي قسَّم الناس بحكمه الظالم الجائر المتكبر إلى قسمين:

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾. [القَصَص: ٤].

فرعون الذي تكبر بسلطته وبجمعه وبشيعته وبأنصاره فناداهم:

﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾. [طه: ٦٤].

- إنه الاغترار بالجمع وبالكثرة وبالسلطة الذي يورد المهالك . .

يقول النبي ﷺ: «**إنه سيصيب أمتي داء الأمم**» قالوا: يا نبي الله وما داء الأمم؟.

قال: «**الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغي ثم يكون الهرج**». ابن أبي الدنيا والطبراني بإسناد جيد.

فيا متكبر ويا مغتر بالكثرة اعلم أنك ستدخل قبرك وحدك وستبعث وحدك

وستحاسب وحدك ولن ينفعك أحد ممن كنت تتكبر بهم . . ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ . [عبس ٣٤ - ٣٦].

- فماذا كانت نتيجة هذا الكبر وهذا التكبر بالسلطة وبالجمع وبالكثرة؟

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ . [القَصَص: ٤٠].

وفى الآخرة:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ . [غَافر: ٤٦].

التكبر والاغترار بالمال:

لا يمكن أن نذكر الكبر والتكبر بالمال دون أن نذكر قارون وما أدراك ما قارون؟.

يصف المولى عز وجل حاله وغروره وبغيه على الناس بماله فيقول عز وجل:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ . [القَصَص: ٧٦].

فكيف كان غناه وكيف كانت أمواله؟ يقول المولى عز وجل:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ . [القَصَص: ٧٦] .

وكان العقلاء من قوم موسى ينصحونه كلما رأوا كبره وغروره بماله:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ . [القصص: ٧٦، ٧٧].

فكيف كان كبره؟

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ . [القَصَص: ٧٨].

فكيف كانت العاقبة؟

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ . [القَصَص: ٨١].

تأمل ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ﴾.

وتكرارها في قصة سورة الكهف:

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾. [الكهف: ٣٤، ٣٥].

فماذا كانت العاقبة؟

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾. [الكهف: ٤٢].

ثم ماذا؟ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾. [الكهف: ٤٣].

هناك عند قارون: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

[القَصَص: ٨١].

وهنا عند هذا المتكبر بحديقته: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

[الكهف: ٤٣]. .

لماذا؟ لأن الناس ينصرفون عن أمثال هؤلاء إذا فقدوا المال . .

رأيت الناس قد مالوا ... إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال ... فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس منفضة ... إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة ... فعنه الناس منفضة
رأيت الناس قد ذهبوا ... إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب ... فعنه الناس قد ذهبوا

فلماذا الكبر ولماذا التكبر؟

التكبر بالأصل وبالحسب والنسب "

أيضا لا يمكن أن نتحدث عن التفاخر والتكبر بالأصل دون أن نذكر إبليس لعنه الله . .

إبليس الذي عصى ربه متكبرا بأصله ورفض السجود لآدم إذ أمره الله . .

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾. [الأعراف: ١٢].

فكانت عاقبة هذا التكبر بالأصل:

﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾. [ص: ٧٧، ٧٨].

فلماذا التكبر بالأصل وبالحسب وبالنسب . . ؟

- رسول الله ﷺ يعلمنا ويرشدنا فيقول:

«إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء . . مؤمن تقي وفاجر شقي الناس بنو آدم وآدم من تراب». صحيح أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد.

- وهذا موسى عليه السلام يجلس مع رجل فيذكر الرجل أجداده على سبيل الفخر. . ويوحى المولى عز وجل إلى موسى: **«يا موسى أخبر هذا الرجل أنه ذكر تسعة من أجداده كلهم في النار وهو عاشرهم»**.

الدروس والعظة والعبرة:

يقول الله تعالى:

﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾. [القصص: ٨٣].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾. [الإسراء: ٣٧]. . أي مستكبرا.

ويقول عز وجل:

﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾. [الإسراء: ٣٧].

لن تقدر على ضرب الأرض وهدها . . ولن تستطيع بكبرك وأنفك المرفوع أن تبلغ طول الجبال تعاظما وكبرا . . . وأمرنا عز وجل فقال تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾. [لقمان: ١٨].

ولا تصعر خدك للناس أي تلوى عنقك عنهم إعراضا وكبرا.

- إن مطرف بن عبد الله رأى المهلب وعليه حلة يستحبها ويمشى بها الخيلاء فقال: يا أبا عبد الله ما هذه المشية إلى يبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أما

تعرفني؟ فقال مطرف: بل أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة . . (والعذرة) هي الغائط . . و(النطفة المذرة) أي كريهة الرائحة.

فيا مدعى الكبر إعجابا بصورته انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما في بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا بن التراب ومأكول التراب غدا أقصر فإنك مأكول ومشروب

الترغيب في التواضع:

- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

يقول الله تبارك وتعالى: من تواضع لي هكذا - وجعل باطن كفيه إلى الأرض - رفعته هكذا - وجعل باطن كفيه إلى السماء.

- لذلك انظر إلى من علم الدنيا كلها التواضع . .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خُلق قبل الساعة . . فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك . . أفملكا نبيا يجعلك أو عبدا رسولا؟

قال جبريل: تواضع لربك يا محمد . . فقال النبي ﷺ: «**بل عبدا رسولا**».

مسند أحمد وأبو يعلى وصحيح ابن حبان.

- وهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يضرب لنا أروع المثل في التواضع وهو الذي يحكم أمة المسلمين . .

يأتيه ضيف وكان يكتب شيئا فكاد السراج أن ينطفئ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟.

فقال عمر: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه . . قال الضيف: أفأنبه الغلام؟. فقال عمر: هي أول نومة نامها . . ثم قام عمر أمير المؤمنين وجاء بالزيت وملأ المصباح ثم جلس، فقال الضيف: أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟.

فقال: (ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء وخير الناس من كان عند الله متواضعا). إحياء علوم الدين.

الأخوة الأحباب . .

يقول الصادق المصدوق ﷺ:

«**تحاجت الجنة والنار . . فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون . . وقال الجنة: فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم . . فقضى الله بينهما فقال:**

إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها». صحيح مسلم.

الخطبة الثانية:

ليكن لنا في رسول لله ﷺ المثل والقدوة في التواضع وترك الكبر والتكبر . .

لقد كان ﷺ كما وصفه الواصفون:

يعلف البعير ويركب الحمار ويحلب الشاة ويقم البيت (يكنسه).

ويخصف النعل ويرقع الثوب وليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه . .

يشترى الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه . .

يأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا . . يصافح الغنى والفقير والكبير والصغير . .

- ويقول أنس رضي الله عنه:

كانت الجارية تأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به لحاجتها حيث شاءت . . وكان إذا قابل الرجل فصافحه فلا يصرف وجهه عنه حتى يصرف الرجل وجهه . . ولا ينزع يده من يده حتى ينزع الرجل . . ولم ير مقدما ركبتيه قط بين يدي جليس له

- ويعلمنا التواضع فى حديث معاوية بن أبى سفيان فيقول: «**من سره أن يتمثل الناس له قياما فليتبوأ مقعده من النار**». سنن أبي داود وغيره.

وعندما دخل يوما على أصحابه فقاموا بدون شعور رغم أنه ﷺ سبق وأن نهاهم عن الوقوف له عند دخوله، فلما قاموا غضب النبي ﷺ، وحاول حسان بن ثابت أن يهون ويلطف الموقف فقال:

قيامي للعزيز عليَّ فرض وترك الفرض ما هو مستقيم

عجبت لمن له عقل وقلب يرى هذا الجمال ولا يقوم

إنه التواضع والحرص على عدم تسلل الكبر إلى القلب . .

- يدخل عليه رجل . . ولما رأى الرجل النبي ﷺ واستشعر هيبته ارتعد واضطرب . .

فقال له النبي ﷺ: «**هَوِّنْ عليك فإنى لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**». سنن ابن ماجه والحاكم فى المستدرج وصححه الألبانى.

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم

دعا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

الأخوة الأحباب . .

فعليكم والتواضع وإياكم والكبر واعلموا أن المتكبرين في جهنم لأنهم ينازعون الله صفاته . .

يقول عز وجل فى الحديث القدسى الشريف:

«**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما ألقيته فى جهنم**».

سنن أبى داود وابن ماجه ومسند أحمد.